

استشعار نهاية الأندلس في ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي

بقلم الأستاذة : حسناء الطرابلسي بوزوينة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية — تونس

حظي الأدب الأندلسي بعناية الدارسين والنقاد من عرب ومستشرقين فتداولوا آثاره بالتحقيق والنشر، والدراسة والنقد، وكثر المتخصصون فيه. ولكن بقيت فيه فترة غامضة بعض الغموض، وهي فترة القرون الإسلامية الأخيرة، وعلى وجه التدقيق القرنين الأخيرين في تاريخ الأندلس العربية المسلمة. ولئن اعتمدت الوثائق التاريخية في دراسته، فإنه لم يتيسر للباحثين تكميل الدراسة باعتماد النصوص الأدبية، لأسباب عديدة أهمها أن معظم النصوص التي كتبت في هذه الفترة لم تحقق إلا أخيراً، وبعضها لم ينشر بعد بين الناس.

والتأمل في تاريخ الأندلس يتبين في المرحلة الأخيرة من هذا التاريخ فترة استقرار سياسي نسبي. ونعني بالمرحلة الأخيرة عهد دولة النصريين في غرناطة⁽¹⁾. فقد سقطت الإمارات والعواصم الأندلسية واحدة فواحدة في أيدي الإسبان وتقلّصت مساحة الأندلس الإسلامية إلى أن اقتصر على إمارة غرناطة وحدها، وهي المنطقة الواقعة ما بين المرية وجبل طارق على ساحل البحر الأبيض المتوسط والتي لا تتجاوز شرقاً وشمالاً مدينة بسطة وجبال زندة وألبيرة. وقد قامت دولة بني الأحمر على رأس هذه الإمارة الصغيرة سنة 635 هـ، وقلّ بمقتضى ذلك التناحر على السلطة إذ صار محصوراً في أسرة بني الأحمر وفي عرش غرناطة وحدها. فعرفت البلاد نوعاً من الاستقرار الداخلي. ورافق هذا الاستقرار ازدهار أدبي وفكري نسبي تجلّى خاصة في القرنين الأخيرين 8/ 14 و 9/ 15. فنبغ فيهما عدد من الأعلام في ميادين الشعر والأدب والفقه وعلوم الدين. ولا شك أن آخرهم وخاتم شعراء الأندلس عموماً عبد الكريم القيسي شاعر بسطة الذي عاش إلى ما بعد سنة 890/ 1485⁽²⁾.

- (1) دامت دولة بني الأحمر في غرناطة من سنة 635 هـ / 38 — 1237 م إلى سقوط غرناطة سنة 897 هـ 1492 وبقيت طيلة تلك المدة دولة الإسلام الوحيدة في الأندلس. ومؤسسها هو محمد الأول الغالب بالله. (دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية — الجزء الأول ص 510).
- (2) ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي تحقيق د. جمعة شيخة ود. محمد الهادي الطرابلسي.

فهو إذن قد عايش الأندلس في أيامها الأخيرة ورافق وطنه السليب في فترة الاحتضار ونعى إلينا مدنه وحصونه مدينة فمدنية وحصنا فحصنا. فشهادته إذن ثينة وطريقة لأنها شهادة عيان ولأنها ليست شهادة طرف أجنبي يكتفي بمعاينة الأحداث وتسجيلها، بل هي شهادة إنسان معني بالدرجة الأولى، إنسان يشاهد وطنه يتمزق إربا إربا ويقع شيئا فشيئا في قبضة العدو المسيحي. وكل رقعة تضيع من أيدي المسلمين تتحول قسرا إلى أرض مسيحية معادية. لذلك، فإن مصيبة القيسي عظيمة وتفجعه كبير.

ونظرا إلى قيمة هذه الشهادة وندرة مثل هذه التجربة، حرصنا على تفصي ديوان عبد الكريم القيسي لتبين كيف استشعر نهاية الأندلس في شعره، وكيف عاش هو ومعاصروه هذه المرحلة العسيرة من تاريخ الأندلس أي مرحلة النهاية ولحظات الاحتضار.

ولكن قبل ذلك، رأينا أن نلقي بعض الأضواء على ناحية هامة في الديوان سخر لها الشاعر جانبا كبيرا من اهتمامه وشعره، ولها صلة متينة بموضوعنا وهي وصف الأوضاع الاجتماعية السائدة، في عصره. ذلك أن ديوان القيسي وثيقة أدبية تاريخية، اجتماعية،⁽³⁾ إذ أنه اهتم بتصوير حياته وحياة معاصريه في مختلف وجوهها وأدق دقائقها تصويرا كثيرا ما يتخذ صبغة الشكوى والتذمر والاستياء من فساد الأوضاع وضياع الدين واختلال القيم. ولئن كان الشاعر يخصص بتصويره ذاك بسطة وسكانها فإن ما ينطبق على بسطة ينطبق ولا شك على البقية الباقية من مدن الأندلس. لهذه الأسباب أفردنا القسم الأول من بحثنا لتصوير فساد الأوضاع ببسطة وضياع الدين واختلال القيم.

1. فساد الأوضاع ببسطة وضياع الدين واختلال القيم :

كثيرا ما تطرق القيسي في ديوانه إلى وصف الوضع الاجتماعي السائد في مجتمعه وبيئته وخاصة في موطنه بسطة. فإذا بهذا الوضع يتميز بالفساد والانحلال. ذلك أن ضيق رقعة البلاد وتقلص هذه الرقعة يوما بعد يوم، وتضاؤل موارد الدولة وانسداد أبواب الرزق في وجوه الناس بسبب هجمات العدو وغزواته جعل الأوضاع الاجتماعية تتردى وتنخرم، والانحلال المادي والمعنوي يعم وينتشر. وقد وردت هذه المعاني في قصائد عديدة متفرقة في الديوان. إذ أن الشاعر انشغل كثيرا بهذه الظاهرة واعتنى في جملة من قصائده بوصف ظاهرة الانحلال المادي في البلاد. فهو يعبر عن كرهه لمدينة بسطة رغم أنها موطنه ومسقط رأسه، وعزمه على الرحيل عنها لفساد أخلاق أهلها فلم يعد للصدقة عندهم حق، ولا لأمر الإمام نفاذ، ولا لحكم الشرع حرمة، يقول :⁽⁴⁾

(3) انظر مقال د. جمعة شيخة: القيمة الوثائقية لديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي — حوليات الجامعة التونسية عدد 27 — 1988 ص 119 .

(4) الديوان : ق 49 — ص 127 .

[طويل]

فَقَدْ سَمِعْتُ نَفْسِي الْمُقَامَ بِلَدَةٍ تَغَيَّرَ فِيهَا مَنْ تَخَذْتُ خَلِيلًا
وَأَبْدَى عُيُوسَ الْوَجْهِ مِنْ بَعْدِ بَشْرِهِ وَصَيَّرَ لِي الْبُؤْسَ الصَّحِيحَ عَلِيلًا
وَلَمْ يَلْتَفِتْ أَمْرَ الْإِمَامِ وَحُكْمَهُ وَرَدَّ حُسَامَ الْعِزِّ مِنْهُ فَلِيلًا
وَلَمْ يَرْغَ حُكْمَ الشَّرْعِ فِي ذَاكَ غَامِدًا وَكَانَ بِرَغْمِ الشَّرْعِ فِيهِ كَفِيلًا

كما أن امتناع الحق فيها وانتشار الظلم الذميمة جعله يعزم على الرحيل عنها، ويقر العزم على ذلك علّه يظفر بمقر يعترف فيه سكّانه للرجال بالمنزلة والفضل، ويلاقى فيه الإنسان السعد والأنس والتنعيم وهي معان اختفت كلّها من مدينة بسطة، وأخلاق افتقر إليها أهلها إذ يقول في نفس القصيدة⁽⁵⁾ .

فَإِنْ مِنَ الْعَجْزِ الثَّوَاءَ بِمَوَاطِنَ يَكُونُ بِهِ الظُّلْمُ الذَّمِيمُ نَزِيلًا
ثم يقول :

لَعَلَّ الَّذِي أَلْقَاهُ يَذْهَبُ جُنَلَةً وَأُبْصِرُ وَجْهَهَا لِلْسُرُورِ جَمِيلًا
يَلْقِيَا رِجَالٍ فِي مَوَاطِنَ طَالَمَا بَنَتْ وَتَنَوَّا فَعَرَّ الرَّجَالُ أَثِيلًا
وَأَلْفِي لَدَيْهِمْ مَنْ أَتَاهُمْ بِأَرْضِهِمْ مِنَ الْفَضْلِ حَطًا فِي النُّفُوسِ جَزِيلًا

ولكن بدا مجملًا معممًا في هذه المقطوعة، فإننا نجد في مقطوعات أخرى أكثر تفصيلًا وتدقيقًا فيخصّ كلّ مقطوعة بإثارة قضية من القضايا، ووصف وجه من وجوه الفساد والانحراف التي سادت البلدة إذاك، فيقول في المقطوعة التي خاطب بها القاضي أبا عمرو بن منظور⁽⁶⁾ واصفاً وضعية الأحباس وداعيا إياه إلى النظر في أمرها واتقاء الله في شأنها :

[البسيط]⁽⁷⁾

يَا أَيُّهَا الْمَاجِدُ الْمَأْمُولُ جَانِبُهُ لِحِفْظِ الْأَخْبَاسِ مِنْ عَادٍ وَمُفْتَرِسِ
أَلَلَةٍ فِيهَا فَقَدْ ضَاعَتْ وَقَدْ خَرِبَتْ وَأَصْبَحَتْ فِي عِدَادِ الْأَرْبَعِ الدُّرُسِ

(5) ق 49 ، ص 128 .

(6) هو أحد رجالات دولة بني الأحمر في النصف الثاني من القرن 9 / 15 ، تولى قضاء مدينتي مالقة وبسطة كما تولى قضاء الجماعة بغرناطة (الديوان ص. 493) .

(7) ق 161 — ص 273 .

كما يدعو إلى تعيين مشرفين عليها يتصفون بالشرف والطهر حتى يحفظوا حقوقها ويردوها إلى مستحقها يقول: (8)

وَقَدْ أَثْنَيْتُكَ بِمَا ثَلَّفَاهُ شَاكِيَةً مَعَ أَنَّهَا وَصِفَتْ بِالْعِيِّ وَالْخَرَسِ
وَمُشْرِفًا وَشَهِيدَيْنِ انْظُرَنَّ لَهَا وَنَاطِرًا طَاهِرَ الْأَعْرَاضِ مِنْ دَنَسٍ
هذا يدل على حالة التدهور والإهمال التي آلت إليها الأوقاف في دولة بني نصر. وهذه الحالة لم تلحق الأوقاف فحسب بل عمت كذلك المساجد، بيوت الله ومعقل الدين، فتعطلت وظائفها وتوقف فيها كل نشاط بعد أن كانت قلب البلاد النابض ومصدر الحركة والحياة فيها، وحكم على أئمتها وقرائها وفقهائها بالبطالة. وهذا أعظم نذير بالشر وأكبر دليل على قرب النهاية، وعلى أن القيسي شهد آخر أيام الأندلس وصورها لنا وهي في النزاع الأخير. ومن الأدلة على ذلك أنه ذكر بصريح العبارة في تقديمه النثري لمقطوعة من آخر ما ورد في الديوان حادثة تعطيل وظائف الجامع الأعظم بمدينة بسطة. وقد قال في ذلك: «وقلت عند الحادثة المعلومة العائدة على الجامع بتعطيل وظائفه» (9). وهذه الوضعية المتردية التي آلت إليها المساجد والمؤسسات والخطط الدينية انعكست سلباتها مباشرة على حياة الناس عامة وحياة شاعرنا خاصة. فهو فقيه يرتزق من الإقراء والتوثيق وخطبة الجمعة وغيرها من الخطط الدينية. وتعطيل هذه الوظائف تعطل مورد رزقه وأصبح مهددا في حياته وفي كيانه. وقد اشتكى من ذلك في مقطوعة صدر بها رسالة وفيها يقول: [الطويل] (10)

إِلَى اللَّهِ تَشْكُرُو مَا ثَلَّاقِي مِنَ الْأَذَى فَعِنُّهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ ثَلَّتِمَسُ النَّصْرَا
فَقَدْ أَفْطَرُوا فِي ظُلْمِنَا وَاهْتِضَامِنَا وَجَاؤُوا بِأَمْرِ لَا يُطِيقُ لَهُ صَبْرَا
قَرَأْنَا وَبِالتَّوْفِيقِ أَذْنَى مَعِيشَةٍ فَقَدْ عَطَلُوا التَّوْثِيقَ وَأَطْرَحُوا الْإِقْرَا

وليس غيره من الفقهاء بأحسن حالا منه، بل إن أوضاعهم صارت إلى درجة من التدهور المادي والمعنوي دفعت بالشاعر إلى المقارنة بين وضعية الفقيه ووضعية الكلب والخروج باستنتاج غريب هو أن الكلب أعلى وأشرف منزلة ببسطة من الفقيه يقول: [مجزوء الكامل] (11)

أَلَكَلْبُ صَارَ بَيْسَطٌ أَعْلَى وَأَشْرَفُ مِنْ فَقِيهٍ
أَنْلَى فَقِيهِ يَغْتَلِي لَمَحَلُّهُ أَوْ يَرْتَقِيهِ

(8) في 161 ص 273 .

(9) في 312 ص 466 .

(10) في 170 ص 282 .

(11) في 189 ص 311 .

وليس أدلّ على ذلك من كون أهل بسطة صاروا يكرمون اللّقام ويهينون قراءة القرآن وفي ذلك يقول :

[الخفيف] (12)

لَا رَعَى آلُّهُ بَسْطَةً وَأُنَاسًا بِجَمَاهَا أَضْحَكُوا مِنْ أَلْسُكَانٍ
فَلَقَدْ أَكْرَمُوا اللَّقَامَ افْتِحَارًا وَأَهَانُوا الْقُرْآنَ لِلْقُرْآنِ

هذا الانحلال المادّي الذي شمل مدينة بسطة ومساجدها ومؤسساتها تبعه انحلال أدبي شمل الدين والمبادئ والقيم وأنظمة البلاد. وما يقال عن بسطة يقال، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، عن سائر بلاد الأندلس وبالتحديد عما تبقى منها في حوزة المسلمين.

ويتجلّى هذا الانحلال الأدبي في فساد الأحكام إذ لم تعد مستمدة من الدين ولا خاضعة له. وذلك ناتج عن تولية من ليس أهلا بالولاية وتقديم من لا يستحقّ التقديم، يقول في ذلك :

[الطويل] (13)

تَعْطَفُ عَلَى الْأَحْكَامِ وَاسْتَبَقَ رَسْمَهَا بِإِنْفَادِهَا مِمَّنْ بِهَا الْيَوْمَ يَلْعَبُ
فَقَدْ سَلَبَتْ فِي بَسْطَةٍ أَصْلَ وَضْعِهَا بِتَقْدِيمِ مَنْ لَوْلَاهُ لَمْ تَكْ تُسَلَبْ

وهؤلاء الولاة الذين ليسوا أهلا للولاية، وهؤلاء القضاة الذين لا يصلحون للقضاء أصبحوا يصدرون الأحكام جزافا لا يراعون فيها للدين حرمة أو اعتبارا، ولا يهتمون بإثبات حق أو إقامة عدل. فجاءت أحكامهم جائزة منافية للدين، ومع ذلك فهي سارية المفعول. ولم يسكت الشاعر عن ذلك بل ثار وغضب وانتقد وهجا ولم يتورع عن تسمية هؤلاء الضالين الظالمين بأسمائهم في بعض الأحيان، كهذا القاضي الذي حوّل المساجد سجونا وأباح النكاح بلا صداق فبلغ في الاستهتار بالدين وتعاليمه، أقصى الحدود. يقول في ذلك :

[الكامل] (14)

تُبَا لِقَاضِي بَسْطَةِ ابْنِ مُفَضَّلٍ تُبَا لَهُ فِيهِ يَرُوحُ وَيَعْتَدِي
فَلَقَدْ أَتَى مِنْ حُكْمِهِ بَعْجَائِبَ أَمْثَالُهَا فِي عَصْرِنَا لَمْ تُعْهَدِ
فَالسَّجْنُ عِنْدَ سِوَاهُ مَعْرُوفُ الْمَحَلِّ بِلَ وَعِنْدَهُ فَالسَّجْنُ جَوْفُ الْمَسْجِدِ
وَبَرَى النِّكَاحَ بِلَا صَدَاقٍ جَائِزًا رَأَى الْغَوِيَّ الْجَاهِلِيَّ الْمُلْحِدِ
وَيُعَيِّرُ الْأَحْكَامَ عَمَّا أَصْلَتْ تَغْيِيرَ جَبَّارٍ غَيِّدٍ مُعْتَدِ

(12) ق 188 ص 310 .

(13) ق 184 ص 303 .

(14) ق 140 ص 243 .

ويواصل انتقاده للقضاة فيقول في موطن آخر :

[الكامل] (15)

يَا أَهْلَ بَسْطَةِ دَعْوَةٍ مِنْ مُشْفِقٍ لَوْ فِيكُمْ لِدُعَائِهِ مَنْ يَسْنَعُ
إِنَّ الْقَضَاءَ وَظِيفَةَ دِينِيَّةٍ مَا قَطُّ قَامَ بِحَقِّهَا مَنْ يَطْمَعُ
وَأَرَى الَّذِي وَلِيَ الْقَضَاءَ بِمَصْرِكُمْ قَدْ صَارَ يَطْمَعُ بِالْقَضَاءِ وَيَجْمَعُ

هؤلاء القضاة المفسدون في الأرض غيروا وجه الدين، بل عكسوا آياته وقلبوا عباراته، وبدل أن يسمو بهم فيستمدون منه النور الذي يضيء طريقهم ، والحكم العادل الذي يلم صفوفهم ، وكلمة الحق التي تجمع شتاتهم في فترة عصيبة أهدت فيها الأخطار بهم وهددت كياناتهم، إذا بهم ينحطون به ويفسدون أحكامه ويجعلونه أداة طيعة في يد أهوائهم وشهواتهم فيصبح «دونا» لا ديناً، وفي ذلك يقول القيسي مخاطباً بعض أصحابه:

[البسيط] (16)

أُنْسَ وَلَوْ بِكِتَابٍ مِنْكَ مَهْمُومًا يَرَى بِسْطَةَ رَيِّ الْعَيْشِ مَذْمُومًا
أَضْحَى إِمَامًا بِهَا لَوْ لَمْ يَجْرُ زَمَنٌ أَعَادَهُ بِتَوَالِي الْجَوْرِ مَأْمُومًا
عَدَا وَأَفْرَطَ حَتَّى الْكَذِبِ غَيْرُهُ فَذَالَهُ بَعْدَ الْكُسْرِ مَضْمُومًا

فانتصر الظلم وعمّ الجور ولم يبق للعدل من أثر. وأضحى «بارد العيش» غسلينا ويحموما، بعبارة الشاعر، إذ يقول في المقطوعة ذاتها(17) :

كَمْ شَمَّ فِيهَا لِطَيْبِ الْعَدْلِ مِنْ أَرْجٍ وَمَا سَوَى الْجَوْرِ يُلْفَى الْآنَ مَشْمُومًا
فَبَارِدُ الْعَيْشِ فِيهَا الْيَوْمَ يَحْسِبُهُ لِضَيْعَةِ الْحَقِّ غَسْلِينَا وَيَحْمُومًا

على أن الشاعر، وإن اعتراه اليأس في مواطن كثيرة وتملكه الشعور بأن الأوضاع وصلت إلى درجة من الفساد والتردي اندثر معها كل أمل في إمكانية الإصلاح ، فإنه ، في مواطن أخرى، لا يدخر جهداً في محاولة تنبيه قومه، وبعث الوعي في نفوسهم، وخاصة في محاولة إيقاظ همم أهل الخير والحق الذين لم تخل البلاد من جميعهم. لذلك كلما ولي في البلاد قاض

(15) ق 165 ص 277 .

(16) ق 163 ص 275 .

(17) ق 163 ص 275 .

جديد، اتجه إليه الشاعر مادحا، ممجدا، حاثا إياه على معالجة الأوضاع بإقامة الحق وإزهاق الباطل وإعلاء كلمة الدين الذي تداعى على أيدي المنافقين الظالمين، فيقول:

[الخفيف (18)]

يَا وَجِيْدَ الزَّمَانِ دِينَا وَفَضْلَا وَجَلَالَا وَفِي الْعُلُومِ اتِّسَاعَا
أَيُّ ذَلْ أَصَابَنَا بَيْنَ قَوْمِ أَهْمَلُوا الَّذِينَ عَنْ نِفَاقٍ فَضَاعَا
رَعَوْا الْبَاطِلَ الْمُذْمَمَ فِينَا وَغَدَا فِينَا الْحَقُّ مَا إِنْ يُرَاعَا
دَعْوَةُ الْفَضْلِ مِنْكَ لِلَّذِينَ تُرْجُو هَا هُنَا إِنْ رُكِّنَتْ قَدْ تَدَاعَى

ذلك أن عبد الكريم القيسي أحس إحساسا دقيقا بأن الخطر الذي يهدد أهل الأندلس إنما يهددهم في دينهم وفي كيانهم كعرب مسلمين. لذلك وجب عليهم أن يتشبثوا بهذا الدين ويتمسكوا بأصوله ويستمدوا منه القوة في مواجهة الكفار والصمود أمامهم. فيكون الدين وسيلة دفع ودفاع، ويدافعون عنه ويدفعون به الخطر المحدق، لذلك، يواصل، في المقطوعة ذاتها، قائلا (19).

فَتَفْضَلُ بِهَا عَلَى ظَهْرِ غَيْبٍ تَتَّخِذُ لِمَا نَخَافُ دِفَاعَا
وَأَعْتَمِدُ وَصْلَهَا صَبَاحَ مَسَاءٍ فَبِهَا لِلْخَطُوبِ تُرْجُو انْقِطَاعَا

وكم كان حريّا بأهل الأندلس أن يجمعوا شتاتهم ويوحدوا كلمتهم ويلملمو صفوفهم، فالخطر يحرق بهم من كل حذب وصوب والأعداء تآلبوا عليهم، وضيقوا عليهم الخناق، ولم يعد لهم من هم إلا القضاء عليهم وإجلاؤهم عن أرضهم. فالقضية لم تعد قضية مناوشات على الحدود أو قضية غارات وغزوات متفرقة قد ينتصر فيها هذا الطرف أو ذاك، بل أصبحت قضية حياة أو موت وصار أهل الأندلس يعيشون في رعب وفزع، ويحسّون أنهم مهدّدون في كيانهم. وقد صور عبد الكريم القيسي ذلك في ديوانه أحسن تصوير.

2. تصوير حالة الرعب والفزع التي كان أهل الأندلس يعيشونها في تلك الفترة:

إن الإحساس بعدم الأمن وعدم الاستقرار إحساس ملازم للشاعر لا يكاد يفارقه في حلّه وترحاله، وذلك لما أسلفنا بيانه من ضعف السلطة وجور الحكام وفساد الأحكام. ولكن إلى كل هذه الأسباب الداخلية يضاف سبب خارجي أخطر وأدهى، وهو العدو المترص على الحدود والذي أصبح يسدد ضرباته متتالية لا هوادة فيها، يريد أن يجهز على هذا العليل الذي

(18) ق 162 ص 274 .

(19) ق 162 ص 274 .

نخرو الداء من الداخل وهياً له فريسة سائغة أخذ يلتهمها قطعة قطعة، فيستولي على مدن الأندلس وحصونها مدينة فمدينة وحصنا فحصنا، ويلقي في كل مرة الرعب والفرع في قلوب أهلها، حتى حالت حياتهم رعبا مطردا وفرعا متواصلا .

هذه المعاني نجدها مبثوثة في الديوان بأكمله، ولكن التعبير عنها تعبيرا جلياً واضحاً، وتصويرها تصويراً صريحاً دقيقاً تجل خاصة في مقطوعتين من الشعر وفي نص نثري.

وقد رأينا أن نقف عند هذه النصوص الثلاثة وقفة طويلة نسبياً نظراً إلى أهميتها بالنسبة إلى موضوعنا، ونظراً إلى الشحنة العاطفية الكامنة فيها. فهي على قصرها وقلة عددها بالقياس إلى قصائد الديوان، تكاد العبارة فيها تتفجر رعباً وفرعاً حيناً، وحسرة وألماً وإحساساً بالضعف والعجز حيناً آخر .

استهل القيسي المقطوعة الأولى وتركب من ستة أبيات بقوله :

[المتقارب] (20)

مُصَابٌ عَظِيمٌ دُهِمْنَا بِهِ بِهِذِي الدَّيَارِ وَخَطْبٌ طَرَقَ
هَمَجَرْنَا المَضَاجِعَ مِنْ أَجْلِهِ وَأَخْفَأْنَا اكْتَحَلْتَ بِالْأَرْقِ
وَلَمْ يَتَّقَ فِيهَا امْرُؤٌ قَدْ تَرَاهُ بَدَأَ القُطْرَ إِلَّا اعْتَرَاهُ الفَرْقُ

«مصاب عظيم» بهذه العبارة المشحونة هما وأسى استهل مقطوعته. وقد صدر بها البيت وحذف المسند إليه وهو الضمير «هو» ليرزها ويلفت إليها انتباه السامع والقارىء. فليست غاية الشاعر الإخبار المجرد، بل التحسيس بثقل المصيبة. وليست غاية الشاعر إصدار بلاغ عسكري، بل التعبير عن الانزعاج والتفجع. لأن الخطب الذي حل بهم، هو، على ما يبدو، غزوة عسكرية ليلية كما يدل على ذلك قوله: «وخطب طرق». وليس هدف العدو منها مجرد السلب والنهب، بل هدفه إجلاؤهم عن أرضهم — وقد استعمل القيسي هذه العبارة بالذات في المقطوعة الموالية — وإخراجهم من ديارهم والاستيلاء على أرضهم. لذلك كان الهجوم عنيفاً ورغبة الإباداة والتعطيم واضحة إذ يقول (21) :

لَهَذَا العَدُوِّ الَّذِي أَمُنَا حَرَقَ الْزَّرْعَ فِي أَرْضِنَا فَاخْتَرَقَ
وَحَارَّ مِنَ السَّبْيِ فَوْقَ المُنَى وَكَمْ مُسْلِمٍ دَمُهُ قَدْ هَرَقَ

(20) ق 171 ص 283 .

(21) ق 171 ص 283 .

فالقضية قضية وطن ودين، ويؤكد ذلك قوله: «في أرضنا» و«كم مسلم»، والأندلسي صار مهددا في وطنه ودينه. والعدو أضحي يطارده في عقر داره، فيحرق الزرع ويسبي ويقتل ويريق الدماء. والأدهى والأمر أن هذه الهجمات أصبحت شرًا يتهدد أهل الأندلس في كل آن وحين وفي كل نقطة من بلادهم، ولم تسلم حتى غرناطة العاصمة من هذا البلاء ، فهو يقول (22) :

وَمَا خَرَقَ الْيَوْمَ فِي بَسْطَةِ بِعْرَنَاطٍ مِثْلَهُ مَا خَرَقَ
فَكَأَنِّي بِالشَّاعِرِ يَحْسُ إِحْسَاسًا دَقِيقًا أَنَّ وَطَنَهُ فِي التَّرْعِ الْأَخِيرِ ، وَأَنَّهُ يَعَالِجُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ
تَحْتَ ضَرَبَاتِ عَدُوٍّ قَوِيٍّ جَبَّارٍ لَا يَرْحَمُ .

وفي النص الثاني ، لا يبقى مجال للشك في أن الشاعر يصف وطننا يعالج سكرات الموت، وطننا في حال احتضار. ولا نشك في أن الشاعر مدرك لذلك تمام الإدراك. ويتجلى هذا الإدراك في الجملة التثنية التي قدم بها لهذا القصيد حيث قال: «وقلت أيضا في الغرض الظاهر من النظم» فهو لفرط تسلط، هذا الإحساس عليه ، لم يرَ داعيا إلى تعيين الغرض، بل ترك القصيد يفصح بنفسه عن نفسه. ثم نجد يخصص الأبيات الستة الأولى من القصيد لذكر الله وتمجيده والتغني به مثل الصوفية، مستعملا في ذلك أسلوب التريديد. فردد التركيب الدعائي في مستهل الأبيات الثلاثة الأولى وهو قوله : « يا من إذا ... » وردد ذكر الله ممجدا إياه ، معددا صفاته ، وردد ذكر المصائب الجمة التي حلت به ويقومه مستعملا لها في كل مرة اسما جديدا. فهي : «الأزمات» و«الكربات» و«الكروب» و«الحادثات» مع ملاحظة أن الأسماء الثلاثة الأخيرة وردت كلها في بيت واحد ، وهي «العظيمة» و«الملمة» و«الخطب». وكأن الأسماء كلها لا تفي بوصف حالهم مع المصائب والحن وتصوير ما آلوا إليه، يقول :

[الكامل] (23)

يَا مَنْ إِذَا يُدْعَى يُجِيبُ تَفَضُّلاً وَإِذَا لَهُ يُشْكَى يَجْنُ وَيَغِطِفُ
يَا مَنْ إِذَا الْأَزْمَاتُ عَمَتْ لَمْ يَزَلْ بِالْخَلْقِ يَرْفُقُ بِالْجَمِيعِ وَيَلْطِفُ
يَا مَنْ إِذَا الْكُرْبَاتُ حَلَّتْ لَمْ يَزَلْ يَكْفِي الْكُرُوبَ الْحَادِثَاتِ وَيَكْشِفُ
ويقول كذلك ، مدخلا بعض التغيير على لفظ التريديد (24) :
أَنْتَ الَّذِي تُرْجَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ حَلَّتْ بِنَا مِنْ أَجْلِهَا تَنْخَوُّفُ
أَنْتَ الَّذِي تُلْقَى لِكُلِّ مِلَّةٍ تَنْفِي الَّذِي مِنْهَا أَلَمٌ وَتَنْصَرِفُ
أَنْتَ الرَّجَا فَلَا دُؤَا حَالَتْ لِمَا تَلْقَاهُ مِنْ خَطْبِ الْعُدَاةِ وَأَلْفُ

(22) نفس القصيدة السابقة .

(23) ق 178 ص 295 .

(24) ق 178 ص 295 .

فالتريد في هذه الآيات شمل اللفظ والتركيب والمعنى .

أما في البيت الموالي فقد اقتصر على التركيب فقط إذ يقول (25) :

فَقُلُوبُنَا لِلْخَوْفِ جَمٌّ خَفَقَتْهَا وَجُفُونُنَا لِلدَّمْعِ مَا إِنْ تَطُرِفُ

وأسلوب التريد هذا أضفى على المعاني صِبْغَةَ الابتهالات الصوفية الصادرة عن إنسان تراكت عليه المصائب برّحت به الآلام فلم يجد له من ملجأ إليه وملاذ يلوذ به سوى ذات الله يتضرّع إليها ويمجدها ويستمدّ منها الصبر والقدرة على الصمود والثبات. خاصة وأنّ عدوّهم عدوٌّ لدود، والقضية بينهم وبينه قضية مصيرية. إذ أنّ هذا العدو يروم طردهم من أرضهم وإجلائهم عنها ومحو كل أثر للدين الإسلامي فيها — يقول (26) :

عَزَمُوا عَلَى إِجْلَائِنَا عَنْ أَرْضِنَا مِنْ بَعْدَمَا اجْتَمَعُوا لَنَا وَتَأَلَّفُوا
وَتَطَلَّعُوا فِرْقًا لَهُمْ مَعَالِمٌ لِلدِّينِ شَيْدَ بِنَاؤِهَا وَاسْتَشْرَفُوا

ومما يزيد العبارة تأثيراً والكلمة وزناً أنّ مصيبة الشاعر ليست مصيبة فردية، بل هي مأساة أمة بأسرها، ومحنة وطن بأكمله. مأساة الأمة العربية المسلمة بالأندلس. هذه الأمة التي أمست بعد العزة والقوة والازدهار، في حالة قصوى من الضعف والوهن وقلة العدد وتشتت الكلمة إزاء عدو قويّ منظم جند كل طاقاته لمقاومتهم، وتصدّى لهم بحيله ومكايدته، وعدته وعتاده، يقول (27) :

وَأَثَا بِكُلِّ مَكِيدَةٍ قَدْ أَزْهَفَتْ آرَأُوهَا فِي أَقْبَى لَا تُوصَفُ
ثم يقول (28) :

لَمْ يَنْقُ رُمَحٌ عَنْدَهُمْ إِلَّا أَثَا قَصْدًا بِهِ لِجِهَادِنَا أَوْ مُرْهَفُ

لكن ماذا أعدّ المسلمون يا ترى لمواجهة هذه القوة الغاشمة وهذا العدو المدجج بالسلاح ؟ أعدّوا لذلك... وعدا من الله بالنصر إذ يقول (29):

وَعَدَا مِنْ أَلَلِهِ الْعَظِيمِ مُحَقَّقًا وَأَلَّلُهُ قَطْعًا وَعَدُّهُ لَا يُخْلِفُ

(25) ق 178 ص 295 .

(26) القصيدة السابقة .

(27) القصيدة السابقة .

(28) القصيدة السابقة .

(29) القصيدة السابقة ص 296 .

ولكنه وعد يبقى بمثابة الحلم البعيد إذ يقول القيسي في عجز بيت من الأبيات الأخيرة في القصيدة⁽³⁰⁾ : «فَعَدَّا نُدَّالُ مِنَ الْجَمِيعِ وَتَنَصَّفُ».

إذن، لم يبق للعربي المسلم الأندلسي إلا أن يعلل نفسه بالأحلام والأوهام أو أن يلجأ إلى الدموع يسكب معها حسرته وأسائه ويذيب فيها مہجته وقلبه المنفطر خوفا وهلعا من هول ما يصيبه ويحل به ، يقول⁽³¹⁾:

فَقُلُوبُنَا لِلْخَوْفِ جَمٌّ خَفَقَهَا وَجُفُونُنَا لِلدُّمْعِ مَا إِنْ تَطَرَّفُ

ذلك أَنَّ أبواب الأمل انسدت في وجوه الأندلسيين بعدما آلوا إليه من ضعف ووهن جعلهم عاجزين كَلَّ العجز عن أَنْ يستمدوا من طاقاتهم الشخصية القدرة على مواجهة العدو، كما غمرهم إحساس عارم باليأس والخذلان بعد أن تخلى عنهم الجميع وأنى كل من استنجدوا بهم من ملوك العرب وأمرائهم نصرتهم أو مدَّ يد المساعدة إليهم، حتى لكأنَّ الشاعر يعجب من أَنَّ الله «مازال» يشملهم بنعمته ورعايته، ولم يتخلَّ عنهم هو أيضا، إذ يقول في القصيد نفسه واصفا نجاحا حققوه في صدَّ غارة من غارات العدو:

وَأَبَى الْإِلَآهَ سِوَى حَيَاطِنَا فَلَمْ يَتْلِفْهُمْ عَرَضًا إِلَيْهِ تَشَوَّفُوا
صَنَعَ عَجِيبٌ مِنْ إِلَهِ قَادِرٍ مَا زَالَ بِالتَّعَسَى لَنَا يَتَعَرَّفُ

وتزداد العبارة وضوحا وتصريحا في نص نثري ورد صفحة 259، شفع به الشاعر قصيدا مدح به القاضي أبا عمرو بن منظور⁽³²⁾ عندما تولى ديوان الإنشاء ورئاسة كتاب الحضرة، وفيه يهنئه بالمنصب الجديد ويعبر عن سروره وابتهاجه بذلك النبأ وتفاؤله به وانتظاره كل الخير منه، خاصة وأنَّ البلاد في مأزق حرج أهدقت بها الأخطار وأحاط بها الأعداء من كل حذب وصوب، إذ يقول: «فلله الحمد على إسداء هذه التَّعْمَةِ العميمة، التي يبركها إن شاء الله نرجو منه سبحانه رفع هذه الشدَّة العظيمة، النازلة بهذا الوطن الغريب، الآخذة بمخنق البعيد من أهله والقريب، فهي مقدمة للصَّلاح إن شاء الله منتجة، ولنفس الأولياء بإفاضة النعماء مبهجة، ولخزور غلاء الأسعار وكلب أعداء الله الكفار مزعجة».

إنَّ وجود مثل هذه الفقرة في نصٍّ امتزج فيه النثر بالشعر تعبيرا عن السرور والابتهاج، لدليل على الحمِّ الذي يحمله القيسي في قلبه إزاء هذا الوطن. وإنَّ قارئ هذه الفقرة لابد أن

(30) القصيدة السابقة ص 296.

(31) القصيدة السابقة ص 295.

(32) انظر الإحالة عدد 2.

تستوقفه عبارات عدة، منها خاصة قوله: «الشدة العظيمة» ، «الوطن الغريب»، «الآخذة بمخنق البعيد من أهله والقريب». هذه العبارات تصور حالة الاختناق بل الاحتضار، التي كان فيها هذا «الوطن الغريب»، وهو غريب لأنه عربي مسلم أحاط به الأعداء «الكفار» من كل جهة، وهو غريب أيضا لأن أبناء ملته وجنسه تخلوا عنه، فلم ينصروه ولم يشدوا أزره في محنته، ولم يسعفوه بالمدد اللازم ليدفع غارات العدو المغتصب، فبقي يتخبط كالجرير بين المشاكل الداخلية من مثل «محدور غلاء الأسعار»، والحن الخارجية وقد لخصها في قوله : «وكلب أعداء الله الكفار». وهؤلاء الأعداء ليس لهم من هدف سوى مقاتلتهم قصد إبادتهم عن آخرهم وإجلالهم عن أرضهم ومحو كل أثر لهم فيها. لذلك فلكن حقق الأندلسيون عليهم انتصارًا في يوم ما، فإن الانتصار تعقبه هزيمة، بل هزائم في غد.

وقد صور لنا عبد الكريم القيسي بقلب دام وعين باكية الهزائم التي حلت بقومه يوما بعد يوم، والتمثلة في سقوط ثغور الأندلس وحصونه ثغرا فثغرا، وحصنا فحصنا ، في يد العدو، إذ كانت بلاد الأندلس إذاك بمثابة المحتضر الذي يدب الموت في أوصاله وصلا فوصلا .

3. وصف سقوط الحصون الأندلسية في يد العدو واستشعار النهاية:

ندرج في هذا القسم مجموعة من القصائد والمقطوعات سجلت كل واحد منها حدثا تاريخيا مشهودا أو محنة جديدة في سلسلة الحن التي تتالت على بلاد الأندلس في تلك الأيام متمثلة في سقوط حصن جديد من حصون المسلمين في يد الكفار أو في رقعة جديدة تُقتطع وتسلب من بلاد الإسلام لتضم إلى بلاد الشرك، أو في هزيمة نكراء تحل بجيوش المسلمين، على غرار ما وقع في كائنة لورقة .

1. معركة لورقة (33) :

صور القيسي هذه الهزيمة ، بل صور وقعها في نفوس الأندلسيين وعواقبها الوخيمة عليهم، في تخميس مؤثر يقطر لوعة أوسى — يقول في بدايته :

(33) لورقة مدينة كبيرة، عتيقة الطراز، تقع على سفح مرتفع ولها حصن من أمنع حصون بلاد الأندلس، وفي العهد الإسلامي كانت لورقة قلعة مدينة مرسية. سقطت نهائيا بيد النصارى مع مدينة مرسية سنة 665 هـ / 1266 م. وفي سنة 856 / 1452 ، كانت معركة لورقة التي هزم فيها النصارى بقيادة بيدرو فخاردو (Pedro Fajardo) المسلمين بقيادة ابن عبد البر. (الديوان ص 501).

[الكامل] (34)

لِمَصَابٍ أُنْدَلَسِ تُصُوبُ الْأَذْمُعُ وَلَمَّا جَرَى فِيهَا تَذُوبُ الْأَضْلُعُ
فَلَهَا مَعَ الْأَغْدَاءِ حَالٌ تُفْرِغُ تَقْضِي بِخَسْرَةٍ مَنْ يَرَى أَوْ يَسْمَعُ
وَتَكَادُ مُهْجَتُهُ لَهُ تَتَصَدَّعُ

فحال الأندلس مع أعدائها أضحت حالا مفزعة لأنها صارت بمثابة الحمل الضعيف إزاء
ذئب شرس مفترس أتى على «جميع جهاتها» ولم يكد يبق فيها ولا يذر. إذ يقول (35) :

جَارَ الزَّمَانُ عَلَى جَمِيعِ جِهَاتِهَا فَأَبَاحَ حُرْمَةَ أَهْلِهَا لِعِدَائِهَا
كَمَا أَذَاقَهَا مِنَ الْخُطُوبِ وَالْأَهْوَالِ وَأَذَلَّهَا وَأَبَادَ أَبْطَالَهَا. يقول في ذلك (36) :

فَلَقَدْ أَحَالَ عَدُوُّهَا أَحْوَالَهَا حِينَ الْخُطُوبِ أَذَاقَهَا أَهْوَالَهَا
وَأَفَاضَ فِي أَقْطَارِهَا إِذْلالَهَا لَمَّا أَبَادَ بِلُورِقِ أَبْطَالَهَا

هؤلاء الأبطال الذين جاهدوا واستماتوا في الجهاد ولكن العدو كان يفوقهم عدة وعتادا
وقوة، فلم يستطيعوا له دفعا، ذهبوا ضحية عدم تكافؤ القوى . يقول (37) :

ذَهَبَ الْجَمِيعُ مُجَاهِدِينَ كَمَا ابْتَغَوْا وَخَوُوا هُنَاكَ مِنَ الشَّهَادَةِ مَا حَوُوا
مَاذَا نَكُّوْا أَغْدَاءَهُمْ مَاذَا نَكُّوْا وَلَكِنَّمَا مِنْهُمْ أَسَارَى مَا اقْتَدَوْا

ثم تأتي سلسلة الحصون المتساقطة الحصن تلو الحصن كالبناء المتداعي إذا زعزع أحد
أركانه تداعى له كامل الهيكل بالسقوط .

2. سقوط حصن اللقون (38) :

سجل عبد الكريم القيسي هذا الخطب العظيم في مقطوعة قصيرة اشتملت على أربعة
آيات صدرها بمقدمة نثرية قصيرة كذلك قال فيها: «ومما أنشدته يوم وصول الخبر بأن العدو
الكافر استولى على حصن اللقون من حصون وادي آشي، أعادها الله، بتاريخ يوم الجمعة
الثالث والعشرين لذي القعدة عام ستة وثلاثين وثمانمائة...».

(34) في 80 ص 178 .

(35) المرجع السابق .

(36) المرجع السابق .

(37) المرجع السابق ص 179 .

(38) حصن اللقون من أهم حصون وادي آشي استولى عليه القائد القشتالي غوث دي ريبيرا (Gomez de Ribera) في 23 ذي القعدة 836 هـ / 11 جويليا 1433 (الديون ص 499) .

وهذه المقطوعة بالغة الأهمية لسببين إثنين. السبب الأول هو أنها القصيدة الوحيدة في الديوان التي ضبط الشاعر تاريخها، والسبب الثاني هو ما ورد فيها من تعبير صريح عن الإحساس بقرب النهاية إذ يقول في البيت الأخير منها: [البسيط] (39)

فَاسْتَشْعِرُوا — إِذْ أَضَعْتُمْ فِيهِ حَزْمَكُمْ وَالْجِدَّ — قُرْبَ انْقِضَاءِ الْوَقْتِ وَالْأَمَدِ

فهو يحس إحساسا دقيقا أن كل هزيمة جديدة تقربهم من النهاية التي لم يعد منها بد، وكل غارة جديدة يشنها العدو عليهم تهيئهم فريسة سائغة للغارة الموالية، يقول (40):

ضَيَّعْتُمْ سَفَهَا حِصْنَ اللَّقُونِ وَلَمْ تُرَاقِبُوا فِيهِ حَقَّ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
حَتَّى حَوَاهُ الْعِدَا غَدْرًا وَصَارَ لَهُمْ لِعَزٍّ وَكَمْ عُمْدَةً مِنْ أَفْضَلِ الْعُمَدِ

وهو يحس إحساسا دقيقا كذلك أن مصيبتهم نابعة منهم وأن المتسبب الحقيقي في كل ما حدث للأندلس ولأهل الأندلس إنما هم الأندلسيون ذاتهم. وكما ضيع الأولون العديد من المدن الأندلسية الزاهرة، وفرطوا في مساحات شاسعة من البلاد لانشغالهم بالتناحر والتقاتل تكالبا على السلطة أو لانكبابهم على مجالس اللهو والمجون سفاهة واستهتارا، ناسين أن العدو على الأبواب يترصص بهم الدوائر، يواصل المتأخرون الانحدار في المسلك ذاته، مفرطين في البقية المتبقية من أرض الإسلام بالأندلس، نقطة فنقطة، ونغرا فنغرا، تهاونا وعجزا، حتى أن الشاعر لم يجد من متنفس عما يختلج في نفسه من حسرة، وفي كبده من ألم إلا الشتم والدعاء على قومه لضعفهم وتقصيرهم، فيقول (41):

يَا أَهْلَ وَادِي الْأَشَى لَا دَرَّ دُرُّكُمْ وَلَا يَرْحُثُمْ لَقَى لِلْكَرْبِ وَالْكَمَدِ
ضَيَّعْتُمْ سَفَهَا حِصْنَ اللَّقُونِ وَلَمْ تُرَاقِبُوا فِيهِ حَقَّ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
3. سقوط جبل الفتح (42):

وفاجعة اللقون تلتها مباشرة وفي التاريخ ذاته فاجعة أخرى تمثلت في استيلاء العدو على جبل الفتح إذ قال الشاعر مصدرا القصيدة التي رثى فيها جبل الفتح (43): «وقلت عندما اتصل خبر أخذ جبل الفتح في التاريخ المذكور». والتاريخ المذكور هو الذي أرخ به سقوط

(39) ق 200 ص 347 .

(40) المرجع السابق .

(41) المرجع السابق .

(42) جبل الفتح هو جبل طارق، سقط سقوطا وقتيا سنة 836/ 1433 وهو الذي أشار إليه القيسي.

وسقط نهائيا بيد النصارى سنة 866/ 1462 (الديوان فهرس الأماكن ص 499) .

(43) ق 221 .

حصن اللقون⁽⁴⁴⁾ . وقد رتب قصيدة جبل الفتح مباشرة بعد قصيدة حصن اللقون في الديوان مع العلم أن عبد الكريم القيسي جمع ديوانه ورتبه بنفسه كما بين ذلك في المقدمة⁽⁴⁵⁾ .

ولوعة الشاعر لهذه الفاجعة الجديدة كانت عظيمة ذلك أن لجبل الفتح شأنًا عظيمًا في نفوس أهل الأندلس ماديا وأديبا⁽⁴⁶⁾ . فهو الباب الذي ولج منه العرب الفاتحون إلى إسبانيا، وهو المنفذ الذي انطلقت منه الجيوش لتنتشر الدين الإسلامي وتبسط سلطانه على الجزيرة الإيبيرية. ثم هو همزة الوصل بين الأندلس وإفريقية ومنها إلى سائر بلاد العروبة والإسلام . ثم هو، وخاصة منذ تدهور الأوضاع في البلاد ، بمثابة الجسر الواصل الذي منه يأتي إلى أهل الأندلس العون والممدد، كلما ضاقت بهم السبل والتجؤوا إلى إخوانهم بإفريقية يستنجدون بهم ، ثم هو أخيرا أسمى في هذه العهود البائسة المدلّمة بمثابة الرمز الذي يذكر أهل الأندلس بعهود القوة والازدهار ، ويوهمهم بأنهم ما يرحوا جزءا لا يتجزأ من عالم العروبة والإسلام ، وأن صلتهم به ما برحت قائمة الذات ، وإمكانية الاستغاثة به أو الهروب إليه والاحتفاء به ما برحت متوقّرة . فسقوطه هو إذن ، الكارثة العظمى والطامة الكبرى وهو بداية النهاية بالنسبة إلى ما تبقى من الأندلس ، وهو عند أهلها، إحساس بدبيب الموت يسري في أوصال وطنهم العليل المحتضر ويقوده إلى التلاشي والعدم ويقودهم إلى الرضوخ والاستسلام للعدو المنتصر أو محاولة الفرار والتجاة بدينهم وأرواحهم .

لذلك جاءت قصيدة القيسي في سقوط جبل الفتح مصورة لما اعتلج في نفسه وفي نفس كل أندلسي من آلام، وما اضطرم في قلبه من حزن عميق متأجج اذ استهلها بقوله:

[الطويل]⁽⁴⁷⁾

أُورِي أَوَارَ الْقَلْبِ مَعَ شِدَّةِ الْفَنَاجِ فَتَبْدِيهِ عَيْنَ دَمْعِهَا دَائِمَ السَّفَحِ
وَأُخْفِي الَّذِي أَلْقَى مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَسَى وَظَاهِرُ حَالِي — أَلْدَهْرُ — يُؤْذِنُ بِالصَّنْفِجِ
ويواصل التعبير عن حزنه وحزن بني وطنه لتلك الكارثة قائلا⁽⁴⁸⁾ :

فقلت: دَعَيْتِي الْحُزْنَ فَرَضَ عَلَى الْوَرَى أَمَا قَدْ حَوَى أَعْدَاؤُنَا جَبَلَ الْفَنَاجِ ؟
حَرَامَ عَلَيْنَا الْبِشْرَ وَالسَّمْعُ بَعْدَهُ وَفِي الْقَلْبِ مِنَ آلِمِهِ أَعْظَمُ الْجُرْجِ

(44) انظر سقوط حصن اللقون .

(45) الديوان — مقدمة الشاعر ص 22 .

(46) د. جمعة شيخة «القيمة الوثائقية في شعر القيسي» حوليات الجامعة التونسية عدد 27 لسنة 1988

ص 122-123 .

(47) ق 221 ص 348 .

(48) ق 221 ص 349 .

فلا تتردد في أبياته سوى عبارات «الأوار» و«الفتح» و«الدّمع» المسفوح و«الحزن» و«الأسى» و«الآلام» و«أعظم الجرح». ذلك أنّ فقدان جبل الفتح يعني أنّ الرجاء انقطع وأبواب الأمل انسدت في وجوه الأندلسيين ولم يبق لهم من ملاذ يلوذون به ومُعول يعولون عليه سوى رحمة الله وعونه، فيقول (49) :

عَسَى مَنْ قَضَى فِيهِ بِأَخْذٍ يُعِيدُهُ وَيَذْهَبُ مَا أَشْكُوهُ مِنْ شِدَّةِ الْفُرْجِ
فَمِنْهُ تَعَالَى تَرْجِيهِ الْخَيْرِ كُلُّهُ وَمَا زَالَ أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمَنْ وَالْمَنْجِ
وتتوالى الكوارث وتتعاقب ، فبعد جبل الفتح يأتي دور ثغر بلش .

4. سقوط ثغر بلش (50) :

سجّل القيسي هذه المصيبة الجديدة في مقطوعة (51) اشتملت على أربعة أبيات لا غير. فكانّ شاعرية الرجل عاجزة عن مواكبة الأحداث. أو لكأنّ سرعة تنالي المحن وتلاحقها شلّ قوّته وقتل موهبته، فصارت قصائده الأخيرة في الديوان وخاصة منها تلك التي تسجل أحداثاً جسيمة، قصيرة مقتضبة أشبه ما تكون ببلاغات حربية.

نجدّه في البيتين الأول والثاني منها، يستعرض ما فرط فيه الأندلسيون من حصون وثغور وقعت في يد العدو، فازداد بها قوة ومناعة واتّخذها قواعد جديدة يسدّد منها ضرباته إلى المسلمين (52). ففي الغرب جبل الفتح، وفي الشرق ثغر بلش، وفي الجوف حصن اللقون ، يقول :

[الخفيف] (53)

جَبَلُ الْفَتْحِ يَبْعُ بِالْغَرْبِ بَخْسًا وَتَلَاهُ بِالْبَيْعِ فِي الشَّرْقِ بَلْسُ
وَاللَّقُونُ اسْتَبِيحَ بِالْجَوْفِ غَدْرًا حِينَ فِيهِ بِوَأَجِبِ الْحِفْظِ دُلْسُ

(49) المرجع السابق .

(50) بإمارة غرناطة أربعة أماكن يطلق عليها اسم بلش وهي: بلش مالقة، بلش البيضاء ، وبلش الحمراء وبلش ابن عبد الله. والمقصود هنا بلش الحمراء (Velez-Rubio) وقد سقطت مرتين: الأولى سنة 1437 / 840 واسترجعها بنو الأحمر سنة 1447 / 851 والثانية سنة 1488 / 893 على يد فرديناند الكاثوليكي وكان سقوطها في هذه المرّة سقوطاً نهائياً. والشاعر يشير إلى السقوط الأول. (الديوان. ص. 499) .

(51) ق 271 ص 415 .

(52) ذكر الشاعر هذا المعنى خاصة في مقطوعة «حصن اللقون» ، البيت الثالث : ق 220 ص 347 .

(53) ق 271 ص 415 .

وبذلك أصبح أمير الجزيرة ممسكاً في الجهات الثلاث أي أن زمام الأمور أفلت من يده بالنسبة إلى الجهات الثلاث. وأضحى المملكة الأندلسية المتقلصة عرضة لضربات العدو، لا تغور تحميها ولا حصون تلوذ بها. فلم يبق لمن يقيم بها عن رغبة واختيار إلا أن يعجل بالرحيل عنها، إذ أن العيش في هذه الأرض المهتدة أمسى مستحيلاً يقول (54):

فَأَمِيرُ الْجَزِيرَةِ الْيَوْمَ مِنْهَا فِي الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ وَاللَّهُ مُمْلِسٌ
يَا مُرِيدَ الْجُلُوسِ فِيهَا اخْتِيَارًا إِرْتَجُلْ عَنْهَا وَالتَّمَسْ أَيْنَ تَجْلِسْ

ويأتي في نهاية هذه القائمة السوداء، قصيد أخير يقطر حزناً وانكساراً ويحيم عليه اليأس والقنوط، قاله الشاعر عند استيلاء العدو على حسن أرشدونة .

5. سقوط حصن أرشدونة (55) :

وهذا القصيد بمثابة التوبيخ لهذه السلسلة السوداء، لأن الشاعر بلغ فيه القمة في التعبير عن اليأس المطلق الذي كان يسيطر على أهل الأندلس، وفي وصف حالة الفزع والرعب التي كانوا يعيشون فيها. والأبيات الثلاثة الأولى تُترجم عن ذلك بوضوح، ولا تترك مجالاً للشك أو الالتباس، إذ يقول:

[الطويل] (56)

مَحَايِلُ هَذَا الْحَالِ تُؤْذِنُ بِالْهَلِكِ وَتَقْضِي لَنَا بِالذُّلِّ وَالْعِزُّ لِلشَّرِكِ
وَأَنَّ بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ بِأَسْرَهَا بِذَا الْقَطْرِ يَخْوِيهَا الْعَدُوُّ بِلَا شَكِّ
وَيَقْسِمُ بَيْنَ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ أَهْلَهَا فَمَا عَنْ كِلَا الْأَمْرَيْنِ شَخْصٌ يَمْتَنِكُ

فالمصير إذن حُدد، والحكم أصدر، والتنفيذ بقي رهين أجل محدود.

(54) القصيدة السابقة .

(55) أرشدونة أو أرجذونة (Archidona) مشتقة من الاسم القديم (Eteleduna) ومعناه معصرة الزيت، تقع في الشمال الشرقي من مالقة بين أنتقيرة ولوحة على ضفة شنيل. وبها قلعة بوبشتر التي تحصن فيها ابن حفصون. سقطت بصفة وقتية بيد النصارى سنة 835 / 1431 ، وسقطت نهائياً في 5 عرم 867 / 30 سبتمبر 1462 (الديوان ص. 497) .

(56) قصيد رقم 232 ص 363 .

وإذا كان هناك من لا يزال يشك في الأمر أو يحاول رفض الحقيقة المرة، أو يعلل نفسه ببعض الأمل، فإنَّ الهزيمة الأخيرة التي مني بها المسلمون، والمتمثلة في استيلاء المسيحيين على حصن أرشدونة بعد سلسلة الحصون الأخرى التي وقعت في قبضتهم، أتت لتؤكد الحقيقة وترفع الالتباس. وعبرة الشاعر في ذلك واضحة صريحة. يقول (57):

وَقَدْ رَفَعَ الْإِشْكَالَ أَخَذَ ارْشُدُونِي وَتَصْبِيرُهَا مُلْكًا لَهُ أَعْظَمَ الْمُلْكِ
وَمِنْ قَبْلِهَا حِصْنُ الْقُقُونِ اسْتَبَاحَهُ وَمِنْ جَبَلِ الْفَتْحِ انْتَقَى دُرَّةَ السَّلَكِ

فالحقيقة باتت إذن عارية سافرة أمام الشاعر وقومه. وقد أضحووا على بيّنة من أمرهم ومن المصير الذي يترصدهم. ومع ذلك، فهم عاجزون كلّ العجز عن إحداث أيّ تغيير في مجرى الأحداث. ذلك أنّ الانقسام والتشتت والتكالب على السلطة والطمع ديدنهم. فكيف السبيل إلى «إدراك حق بباطل ؟» يقول (58):

وَنَحْنُ عَلَى نَهْجِ الشُّتَابِ مَسِيرًا لِإِذْرَاكِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ الْمُلْكِ
وَهَيْهَاتَ مِنْ إِذْرَاكِ حَقٍّ بَبَاطِلٍ وَغَشٍّ وَتَذْلِيلٍ وَبُهْتَانٍ أَوْافِكِ
وَحَتَّى الدِّينَ لَمْ تَرَعْ لَهُ حَرَمَةً وَلَمْ يُصْنِ لَهُ حَقًّا. إِذْ يَقُولُ (59):

فَوَأَسَفًا لِلدِّينِ أَهْمِلْ حَقَّهُ وَقُوبِلْ مِنْهُ السُّتْرُ بِالْكَشْفِ وَالْهَنْكِ
وَهُدَّتْ مَبَانِيهِ وَذُكَّتْ سَفَاهَةٌ فَسَاءَتْ بِمَا تُبْدِي مِنَ الْهَدِّ وَالذِّكِّ

ويدعو القيسي في آخر القصيد بني قومه إلى الإفاقة وترك النوم والجمود، مؤكداً لهم أنّ ما يقوله هو الحقيقة التي لا مراء فيها. ويتوهم السامع أنّه يسعى من جديد إلى بعث المهم وإيقاظ العزائم لتدرك الأمر وإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ولكن هيهات لقد فقد الشاعر كل أمل في النصر أو حتى في القدرة على الصمود. فهو يعلم علم اليقين أنّ وطنه أصبح مثل العليل الذي نخر الداء جسمه وأقى على معظم كيانه. وبقيت الروح تتردد في جزء ضئيل منه تنتظر النهاية المحتومة لذلك، فلئن دعا بني قومه إلى الإفاقة وهجر النوم، فليس للمقاومة أو الصمود، بل لبكاء هذا الوطن السليب الذي قرطوا فيه عن جهل وغباوة وسوء تصرف، وتركوه للأعداء

(57) المرجع السابق .

(58) المرجع السابق .

(59) المرجع السابق ص 364 .

ينهبونه ويغتصبونه. فليبكوا هذه الوطن بالدم القاني، إن كانوا فيما مضى سيكونه بالدمع وحده. يقول (60) :

أَفِيقُوا، أَفِيقُوا ، وَأَفْجُرُوا النَّوْمَ إِنَّهُ حَدِيثٌ صَحِيحٌ مَا أَقُولُ وَمَا أُحْكِي
وَمَنْ كَانَ فِيمَا مَضَى الدَّمْعُ بَاكِيًا فَفَرَضَ عَلَيْهِ قَانِي الدَّمِ أَنْ يَبْكِي

هكذا صور عبد الكريم القيسي الأندلسي ذلك الواقع القاسي المرير، وسجل للتاريخ تلك المأساة المؤلمة، مأساة أمة ذابت طعم الذل والهوان، ووصف لنا آخر أيام اللجنة الضائعة وصور لنا اللقطات الأخيرة من شريط سقوط الأندلس.

على أن النهاية في الأندلس ، لم تكن نهاية واحدة بل كانت نهايات، وقد بدأت بسقوط أول مدينة كبيرة وخروجها من أيدي المسلمين وذلك منذ الربع الأخير من القرن 5 / 11 (61) . وقد سجل الشعراء الأندلسيون ذلك عبر القرون في شعر يفيض لوعة وأسى ويندرج في غرض رثاء البلدان والتفجع على الأوطان . وهو غرض بقي حاضرا في الشعر الأندلسي منذ ذلك الحين إلى سقوط آخر مدينة فيها وهي غرناطة عاصمة التصريخ، وقد دام ذلك ما يزيد على الأربعة قرون، من الربع الأخير من القرن 5 / 11 إلى أواخر القرن 9 / 15. وإلى هذا الغرض ينتمي قسم كبير من شعر القيسي في استشعار النهاية، كما انتمى إليه قبله شعر كثير، ولعل أشهر ما اشتهر منه على الإطلاق قصيدة أبي البقاء الرندي (62) التي يقول في مطلعها:

[البسيط]

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ فَلَا يُعْرُ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتَهَا دَوْلٌ مَن سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْزَانُ

وهي قصيدة تعتبر بحق من الآثار الإنسانية الخالدة لما حوته من صدق النبوة وبلاغة العبوة، وجمال اللفظ وعمق المعنى، ولما تضمنته من صور ناطقة وموسيقى راقية. وهي قصيدة تأملية لا توثيقية إذ لا نجد فيها ذكرا لأحداث مخصوصة أو إشارات دقيقة. بل هي تأملات تجاوزت الواقع المأسوي المعيش إلى تصوير مأساة الإنسان حينما كان في صراعه مع الزمان. وهي متأصلة في الشعر العربي، تكون حلقة هامة في سلسلة مأثورة فيه، من أهم حلقاتها

(60) المرجع السابق .

(61) هي مدينة طليطلة . استولى عليها ألفونسو السادس سنة 478 هـ — 1085 م .

(62) أبو البقاء الرندي . هو أبو البقاء صالح بن شريف الرندي ، من أهالي رندة. عاش في النصف الثاني من القرن 7 / 13، فهو معاصر للفتنة التي قامت على إثرها مملكة غرناطة. أهم ما اشتهر به بين الناس هذه المَثِيَّة .

سينية البحري (206 — 284 هـ) في وصف إيوان كسرى، وفي مطلعها يقول:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وَتَرَفَعْتُ عَنْ جَدَا كُلِّ جَنْبِي
وَتَمَاسَكْتُ حِينَ زَعَزَعَنِي الدُّهْرُ التَّمَاسَا مِنْهُ لِنَفْسِي وَكُفِّي

ونونية ابن رشيق في رثاء القيروان. وستتولد عنها مجموعة من المعارضات من بينها نونية
أحمد شوقي في رثاء دمشق وفي مطلعها يقول :

[البسيط]

قُمْ نَاجِ جَلْقٍ وَأَنْشُدْ رَسْمَ مَنْ بَانُوا مَشَتْ عَلَى الرُّسْمِ أَحْدَاثٌ وَأَزْمَانُ
هَذَا الْأَدِيمُ كِتَابٌ لَا كَفَاءَ لَهُ رَثُ الصَّحَائِفِ بَاقٍ مِنْهُ عُنْوَانُ

ولئن لم يبلغ شعر عبد الكريم القيسي الشأو الذي بلغته هذه القصيدة الخالدة في الفن والإبداع، فإن صدق اللهجة وتأجج العاطفة يضيفان على شعره مسحة من التلقائية والجمال تصل حدَّ الإبداع في القصائد التي وصف فيها مخنا وأزمات شخصية أو عائلية حلّت به، أو القصائد التي سجل فيها ما مر به وطنه من كوارث ورزايا.

على أن هذا الشعر يهمننا بالدرجة الأولى كوثيقة أدبية تاريخية. أدبية لأن هذا الديوان هو آخر ديوان أندلسي يصل إلينا. فهو إذن يطلعننا على وضعية اللغة العربية والشعر العربي بالأندلس في آخر أيام العرب بها. وتاريخية لأنه صوّر لنا حياة الأندلسيين في الفترة التي سبقت سقوط غرناطة مباشرة أي في العقود الأخيرة من الحضور العربي الإسلامي بالأندلس. صوّر لنا حياتهم اليومية وكفاحهم اليومي من أجل البقاء ومحاولتهم الصمود في وجه بيئة معادية. إلّا أنه كفاح ميعوس منه لأن الأندلسيين كانوا على يقين من أن النهاية قريبة. ذاك هو الإحساس الذي يغمر قارئ هذا الديوان، وذاك هو الإحساس الذي غمر نفس الشاعر واستولى على كيانه من بداية الديوان إلى نهايته: استشعار النهاية والشعور باليأس والعجز .